

الفرقان
في تفسير القرآن
بالقرآن والسُّنة

الفرقان

في تفسير القرآن

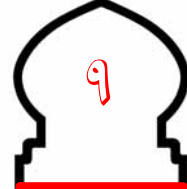
بالقرآن والسنة

الجزء الثالث عشر

تتمة سورة التوبة

سماحة الشيخ

الدكتور محمد الصادقي



تتمة

سُورَةُ التَّوْبَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُنْقَبَلَ مِنْكُمْ إِيَّاكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا
 فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا
 بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا
 وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ
 لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾
 وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِيَّاكُمْ لِمَنَكُمُ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ
 ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَخْرَجًا أَوْ مَدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ
 يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ
 لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ
 وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى
 اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا
 وَالْمَوْلَاةِ فُلُوجِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرْمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ
 فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾

﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُنْقَبَلَ مِنْكُمْ إِيَّاكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا

فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾﴾ :

وترى مجرد الفسوق وإن في غير مسرح الإنفاق وهو ﴿طَوْعًا﴾ كيف

يعمل في أن ﴿لَنْ يُنْقَبَلَ مِنْكُمْ﴾ ل ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ إذا فشرط قبول الإنفاق هو العدالة المطلقة! أو العدالة في الإنفاق حيث ﴿يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (١).

هنا الفسوق محلّق على كافة الأعمال لمكان تحليق الكفر على القلوب، حيث المورد هو المنافقون، ومن شروط قبول العبادة الإيمان، فحتى إذا أنفقوا هؤلاء طوعاً - ولن يكون - ف ﴿لَنْ يُنْقَبَلَ مِنْكُمْ﴾ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿فكينة الفسق ضاربة إلى أعماقكم، فاصلة بينكم وبين الإيمان والمؤمنين، فكيف تتقبل أية عبادة من كافر أو منافق هو أشر منه؟! وقد تبين ذلك بالآية التالية:

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (٢):

هنا ثالث يمنع عن ﴿أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ﴾ هو: كفرهم بالله وبرسوله، وصلاتهم وهم كسالى، وإنفاقهم وهم كارهون، مهما تظاهروا أنه بطوع ورغبة، والأخيران منطويان في الأول، فهما له لزامان لا ينفصلان، فكما «الإيمان لا يضر معه عمل وكذلك الكفر لا ينفع معه عمل» (٢) فطالح العمل لا يمحي صالح الإيمان استئصالاً وإحباطاً، وصالح العمل لا يثبت بالكفار، ضابطة ثابتة لا تستثنى.

هنا ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾ حصر لصلاتهم بحالة الكسل

(١) سورة المائدة، الآية: ٢٧.

(٢) نور الثقلين ٢: ٢٢٥ في الكافي مسنداً عن أبي عبد الله عليه السلام وفيه عن كتاب الإحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل وفيه: فكل عمل يجري على غير أيدي الأصفياء وحدودهم وعهودهم وشرائعهم وسننهم ومعالم دينهم مردود غير مقبول وأهل بمحل كفر وان شملتهم صفة الإيمان ألم تسمع إلى قول الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ﴾ [التوبة: ٥٤] ويرويه «فمن لم يهتد من أهل الإيمان إلى سبيل النجاة لم يغن عنه إيمانه بالله مع دفع حق أوليائه وحبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين».

وحسر لها عن النشاط العبودي، وهذه صفة الكافر بالله، المنافق في عمله كسلاناً ومرائياً: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾^(١) والكسل يعم الجسم إلى الروح ولأن كلا يؤثر على الآخر.

ذلك فصلاة الكسلان المرائي حابطة منافقاً كان أو مؤمناً، ولكن المنافق كل أعماله حابطة قضية عدم الإيمان، فالمؤمن بشيء يضحى في سبيله قدر إيمانه، فهلاً نصلي نحن في نضارة الخاطر وحضارة الحال، وربنا هو الذي دعانا وأمرنا أن نحضر معراج، وسمح لنا أن نكلمه بمحاويجنا، فالتثاقل التكاسل عن الصلاة، أو إتيانها كسلاناً، هو دليل على عدم الهمامة فيها ترجيحاً لسائر المهام، ويكأن غير الله أحب إلينا من الله؟ أو أن سائر الصلوات أنفع لنا من الصلة بالله.

فلنستجوب أنفسنا في محكمة العقل والإيمان إن كان لنا إيمان، ولنتدرج في درجات القرب والرضوان من الرحيم الرحمان حتى نصل لحد لا نرجح على حال الصلاة حالاً، ولا على أقوال الصلاة أقوالاً، ولا على أفعالها أفعالاً، وكما قال أول العابدين: «وقرة عيني الصلاة» جرب قلبك، هل إن شوقك للقاء الله أكثر أم لسائر اللقاء، فيا ويلاه إن كنت ترجح سائر اللقاء على لقاء الله، وسائر الصلوات على الصلاة لله.

إن أهل الله لا يصطفون على حال الصلاة حالاً، بل هم دائبون في الصلاة «خوشا آنان كه دائم در نمازند»: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾^(٢).

ولأنها عمود الدين وعماد اليقين، لذلك نجدها من أجلى جلوات الشياطين، وأسرع صرعاته ضد المصلين، حيث يكرس كافة طاقاته بكل

(١) سورة النساء، الآية: ١٤٢.

(٢) سورة المعارج، الآية: ٢٣.

خيله ورجله ليصرعهم فيها، ولكي يصرعهم في سواها، لأن «الصلاة عمود الدين إن قبلت قبل ما سواها وإن ردت رد ما سواها».

فقد يبعد عنك شيطانك في شطر من صلاتك فيجلو لك ما غاب عنك من حصائل فكرية مهما كانت حول غوامض من الكتاب والسنة، قضية زوال الحجاب بينك وبينها، فيخيل إليك الشيطان أن الصلاة هي مجال الحصول على كل ضالة فكرية ثمينة بعد ضالتها، فيخرجك بذلك عن الحضور أمام ربك فيها، فيجعل صلاتك الفائزة بالصلاة فاضية خاوية عن الصلات.

فلو أنك تأملت في نفسك، من أنت فعرفت أنك الفقر المجرد للآشياء عن أي غنى، ثم تأملت في مقام ربك من هو، فعرفت أنه مجرد الغنى وله كل شيء، ثم فكرت في موقفك من صلاتك أنك على فقرك دعيت إلى معراج ربك لمصلحتك وحاجتك دون حاجته سبحانه ومصلحته، لذبت تخجلا من ذلك الشرف العظيم، وي إن ربي دعاني بل فرض علي أن أكلمه؟ وأنا عنه لاه مفكر في سواه.

ولكنك لما تصلي دون صلاة، فارغاً قلبك عن الحضور بمحضه، ناسياً ربك حاضراً لما سواه، كان عليك أن تموت خجلاً.

ولو لا واجب الصلاة بأمر الله لكانت صلواتنا محرمة من الكبائر، لأنها هتك لساحة الربوبية أن نحسب لكل غاية فيما سوى الله حسابه، ولا نحسب للصلاة لديه أي حساب!.

ذلك ولنعرف أن إتيان الصلاة حالة الكسل هو من علامات النفاق ومن أسباب عدم قبول الإنفاق، مهما لم يصل إلى حد النفاق الرسمي الذي نتحدث عنه هذه الآية وما أشبه من آيات النفاق، وأقل تقدير هنا أن إنفاق هؤلاء وإن أسقط واجب تكليف الإنفاق، ولكنه لا يقبل كما يقبل سائر